التّحريف والوحي الإلهي

المقدّمة

"إنّ الكتاب المقدّس خليط من الحقائق والأباطيل، قد صيغت عبر مراحل زمنيّة متتابعة." هكذا يلخّص المؤلّف بسّام داود عجك موقفَه تجاه مسألة التّحريف.[1] ومن المؤسف أنّ هذه النظرة تعكس موقف العديد من المسلمين اليوم، علماء وشعبًا. وربّما تعلّقت هذه المسألة بشكل أساسيّ بموضوع الوحي الإلهي والفرق بين المفهوم المسيحي والإسلامي لهذه المسألة. ولن نتطرّق هنا إلى موضوع الوحي والإعلان في هذا المقال لأنّه مطروح في مقال آخر من هذا المجلّد. ولكنّنا سنركّز على مسألة التّحريف دون سواها، بدءًا من ورودها في بعض آيات القرآن الكريم، وذهابًا إلى كيفيّة فهم هذه الآيات لدى المفسّرين المسلمين الأوّلين والتّابعين، وصولا إلى ورودها في عدد من الكتابات الإسلاميّة الجدليّة والحواريّة خاصّة حتى القرن الرابع عشر للميلاد. ويتمثّل ما اكتشفناه –وهو ما ننوي إظهاره أيضا- في أنّ عبارة "التّحريف" القرآنيّة لم تُفهَم، في معظم الأحيان، بمعنى "تحريف اللّفظ"- أي تبديل الكلمات- في فترة ما قبل القرن الحادي العشر للميلاد. بل فَهِم المسلمون العبارة بأنّها تشير إلى "تحريف المعنى"، أي التّحريف بالتّفسير أو التّأويل، وهو الإساءة في فهم نصٍّ أدبيّ معيّن. ويتبيّن من دراسة أدبيّة دقيقة للنّصوص الإسلاميّة الحواريّة والجدليّة مع المسيحيّين واليهود أنّ المفهوم الإسلامي لعبارة "التّحريف" بما هو تحريف لفظي دخل على الفكر الإسلامي تحديدًا ابتداءً من القرن الحادي عشر للميلاد، في كتابات العلاّمة الظّاهري ابن حزم الأندلسي. وجدير بالذّكر أنّ تلك الفترة تتناسب مع بداية الحروب الصليبيّة التي شنّجت العلاقات الإسلاميّة-المسيحيّة تشنيجًا لم تتخطّاه الديانتان إلى يومنا هذا. ومن هنا فإنّ هذا المقالَ يدعو القارئَ المسلم خاصّة إلى إعادة النّظر في الموقف الإسلامي المعاصر، الذي ينحصر في المفهوم الأوّل للتّحريف كـ"تحريف لفظيّ". ويسعى هذا المقال كذلك إلى تشجيع المنتمين إلى الدّيانتَيْن المسيحيّة والإسلاميّة على التّحاور في مسألة فهم الكتاب المقدّس وتفسيره بهدف إزالة العوائق وسوء الفهم بينهما، التي تؤدّي إلى التعصّب الدّيني، في حين أنّه ينبغي على الحوار الدّيني أن يقرّب بين البشر ويرفعهم إلى مستويات روحيّة وفكريّة ووجدانيّة عُلْيَا من خلال التبادل البنّاء.

---

[1] **عجك**، بسّام داود، *الحوار الإسلامي المسيحي: المبادئ – التاريخ – الموضوعات – الأهداف*، دار قتيبة، (مكان الإصدار مجهول)، 1998، ص 338.

"التّحريف" في مفهوم مفسّري القرآن الكريم

يَرد فعل "حرّف" أو أحد مشتقّاته أربع مرّات في ثلاث آيات من نصّ القرآن. بالإضافة إلى تلك الآيات الصّريحة، نجد أيضًا آيتَين إضافيّتَيْن، إحداهما تتّهم من "يكتبون الكتاب بأيديهم"، والأخرى من "يلوون ألسنتَهم بالكتاب". وسنورد تلك الآيات، وننظر أوّلاً في كتابات أهمّ مفسّري القرآن الكريم من المسلمين، الكلاسيكيّة منها، كتفاسير الطّبري والرّازي والجلالين والزّمخشري والطبرسي والطوسي والفيض الكاشاني، والحديثة منها، كتفاسير رشيد رضا وسيّد قطب و*التّفسير الوسيط* الذي أصدره بعض علماء الأزهر، والتفسير الكاشف لمحمد جواد مغنيّة، وتفسير روح البيان للبروسوي، دون إغفال تّفاسير أخرى مختلفة.

<u>في الآية الأولى:</u> ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾[2]

يفهم المفسّرون المسلمون فعل "حرّف" في هذه الآية بمعنى: تغيير الكلمة عن معناها، أي تأويلها على الخطأ عمدًا بعد فهمها على وجهها الصّحيح.[3] ويتّفق أكثرهم على أنّ الآية تشير إلى اليهود الذين تأوّلوا كلام الله على غير تأويله الصّحيح، بعد أن فهموه على وجهه الصّحيح.[4] ويشير المفسّرون إلى واقعتَيْن تاريخيّتَيْن متوازيتَيْن قام فيهما اليهود بهذا العمل المكروه، أولاهما عندما استلم قادة اليهود كلام الله من موسى، وثانيتهما عندما سمعوا كلام الله من نبيّ الإسلام على عهده. فيُذكَر في الحالتيْن أنّ فئة من اليهود أساءت إلى كلام الله الذي سمعته عندما أساءت تفسيره فحرّفت تطبيقه. وتشير هذه الآية إلى يهود المدينة على عهد النبيّ، وإلى أنّهم اتّبعوا نفس أسلوب اليهود على

---

[2] سورة البقرة: آية 75

[3] راجع: **الطبرسي**، أبو علي الفضل بن الحسن، *مجمع البيان في تفسير القرآن*، دار مكتبة الحياة، طبعة جديدة ومصححة، بيروت، لبنان، الجزء الأول، ص ص 316 - 318؛ انظر أيضا **الطبري**، *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق أحمد ومحمود شاكر، مؤسسة الرسالة، 1420هـ/2000م، ج 2، ص 245-256، الأخبار 1328-1332.

[4] **الطوسي**، أبي جعفر محمد بن الحسن، *التبيان في تفسير القرآن*، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، المجلد الأول، ص ص 312 - 314؛ ويقول ابن كثير في هذه الآية: " ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 13]" انظر **ابن كثير**، ابو الفداء القرشي، *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق سامي بن محمّد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ/1999م، ج 1، ص 307.

عهد موسى.[5] وتفسير عبارة "من بعد ما عقلوه" هو أنّ اليهود أضلّوا الشعب لا عن سهوٍ، بل "مِن بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم يبق لهم شبهة في صحّته".[6] فالإعلان بالوحي جاء إعلانًا حسنًا، ومن ثمّ، تمّ التّحريف في تأويله عمدًا. ويشير المفسّرون إلى أنّ ذلك التّحريف لم يتمّ في كلام الله نفسه، بل فيما أضافه بعض هؤلاء اليهود على الكلام الذي سمعوه عن الله فيما بعد.[7] ويمكن أن يتلخّص فهم المفسّرين المسلمين لهذه الآية بما يلي: "أنّ مجموعة من بني إسرائيل حين عادوا من جبل الطّور قالوا: سمعنا أنّ الله قال لموسى: اعملوا بأوامري قدر استطاعتكم، واتركوها متى تعذّر عليكم العمل بها".[8] ففي كلّ التّفاسير التي تصفّحناها، لم يفهم المفسّرون كلمة "تحريف" في هذه الآية الأولى بمعنى "تبديل الكلام"، بل بمعنى تضليلِ مَنْ سَمِعَهُ من خلال سوء وضعه في سياقه وفساد تأويله.

<u>في الآية الثانية:</u> ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13))﴾[9]

يربط العديد من المفسّرين للقرآن مسألة التّحريف في هذه الآية بقساوة قلوب اليهود.[10] فقد قست قلوب اليهود نتيجة إبعاد الله إيّاهم عن رحمته تعالى، عقوبة لهم على "نقضهم ميثاقهم"، وهذا الإبعاد

---

[5] راجع: **مغنية**، محمد جواد، *التفسير الكاشف*، دار الجواد، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1981م، الجزء الأول، ص ص 131 - 132.

[6] راجع: **البروسوى**، إسماعيل حقى، (قده)، *تفسير روح البيان*، دار إحياء التراث العربي، الطبعة السابعة، بيروت، لبنان، 1985م، المجلد الأول، ص ص 166 - 167؛ وممّا هو متواتر في كتب التفسير عن هذه الآية: "وقال السدي: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي أنهم أذنبوا. وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقًا؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾" (البقرة: 44) انظر **ابن كثير**، ج 1، ص 308. وواضح أن ما نسب إلى اليهود هنا متعلق بفهمهم وتأويلهم للكتاب وليس متعلقا بألفاظ الكتاب لأن الإقرار بثباتها بيّن.

[7] راجع: **الكتكاني**، السيد هاشم بن السيد سليمان بن سيد إسماعيل بن سيد عبد الجواد الحسيني البحراني التوبلى، *البرهان في تفسير القرآن*، تهران در، جابخانه آفتاب، بطبع رسيد، المجلد الأول، ص 115.

[8] راجع: **الشيرازي**، ناصر مكارم، *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل*، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1992م، المجلد الأول، ص ص 238 - 240.

[9] سورة المائدة: آية 13.

[10] **الألوسي**، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، 1985م، الجزء السادس، ص ص 89 -90.

هو ما يفسّر، حسب المفسّرين، عبارة "لعنّاهم".[11] ويستخرج البعض[12] معنى التحريف في هذه الآية من عبارة "ونسوا حظًّا". ويشير المفسّرون إلى أنّ النّسيان يأتي نتيجة المعصية. فاليهود، بسبب عصيانهم، قست قلوبهم فسقطت أشياء عديدة من التوراة عن حفظهم. فيُفهم "التّحريف"، في هذه الآية، بمعنى ضُعف قدرة اليهود العصاة على حفظ التوراة، فيتركونها ويكتمون منها صفات محمّد، لا بمعنى التبديل أو التغيير في النصّ. ويفسّر البعضُ الآخَر من المفسّرين "التّحريف" هنا بأنّه كتم اليهود لذكر محمّد في توراتهم بمعنى التبديل، ممّا يقترب من مفهوم التّحريف اللّفظي.[13]

<u>في الآية الثالثة:</u> ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يُحْزِنُكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ **يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**. يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا. وَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً. أولَئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ. لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ. وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[14]

يتّفق المفسّرون في تفسيرهم للقرآن بأنّ هذه الآية متعلّقة بطلبِ فئاتٍ من اليهود من نبيّ الإسلام أنْ يحكم على بعض الأمور الّتي حصلت بينهم. فبعث بعض اليهود إلى محمّد وطلبوا منه أنْ يُقرّ في مسألة الدّيّة بين قبيلتيْن منهما.[15] وينقلُ البعضُ مِنْ روايةٍ أخرى بأنّ نبيّ الإسلام سُئل عن حالة زنى، فأعْطى قادةُ اليهود التّعليماتِ لمرؤوسيهم بأنْ يقبَلُوا كلام محمّدٍ إذا اتّفق مع تقاليدهم الشّرعيّة البعيدة عن النصّ التوراتي الأصليّ، وأن يرفضوا حكمه إذا كان مناقضًا له. فاتهام القرآن اليهود بالتحريف في هذه الآية ترمي إلى بيان تلاعبهم بشريعة توراتهم. فشريعة التوراة واضحة في مسألة الزّنى وهو أنّ عقابها هو الرّجم.[16] فكان اليهود، على أيّام محمّد، قد أُبتعدوا عن هذا التعليم واتّبعوا

---

[11] راجع **الزمخشري**، جاد الله محمود بن عمر، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*، الجزء الأول، ص ص 614 - 616؛ والشيرازي، ناصر مكارم، *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل*، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1992م، المجلد الثالث، ص ص 569 - 572.

[12] **الفيض الكاشاني**، المولى محسن، *تفسير الصافي*، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1982م، الجزء الثاني، ص 21.

[13] *القرآن الكريم وبهامشه تفسير الجلالين*، دار إحياء علوم الدين، دمشق، سورية، ص 144.

[14] سورة المائدة5: آية:41.

[15] كذا في **الألوسي**، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، 1985م، الجزء السادس، ص ص 135 - 140. وانظر أيضًا **الفيض الكاشاني**، المولى محسن، *تفسير الصافي*، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1982م، الجزء الثاني، ص ص 35 - 37.

[16] *القرآن الكريم وبهامشه تفسير الجلالين*، دار إحياء علوم الدين، دمشق، سورية، ص ص 149 - 150.

تقاليدهم بدلاً منه، ففضّلوا الجلد على الرّجم. وعندما أرجعهم نبيُّ الإسلام إلى شريعتهم، رفضوا فَتْواه لقساوة قلوبهم ونقضًا لكتابهم. والإشارة هنا أيضا صريحة إلى أن التحريف هو تحريف معنى التوراة وليس تحريف نصّها.

<u>في الآية الرابعة:</u> ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا **يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ** وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا **لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ** وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ ٱللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[17]

يقول المفسّرون في هذه الآية إنّها تشير إلى اليهود أيضًا، وهم الّذين وصلوا في جرأتهم في مواجهة نبيّ الإسلام إلى أن أساؤوا الأدب تجاهه وتحدّوه كما يتّضح من الآية. وفي مسألة التّحريف، يشيرون إلى أنّ اليهود توصّلوا "أن يحرّفوا الكلام عن المقصود به"، أي أنّهم أوّلوا عبارات التوراة "بغير المقصود منها".[18] ويضيف بعض مفسّري القرن العشرين بأنّ هذه الظّاهرة ليست فقط ظاهرة يهوديّة، بل إنّ "في زماننا هذا من محترفي دين المسلمين من ينافسون – في هذه الخصلة – اليهود".[19] فمن الواضح هنا أنّ المقصود هو تحريف المعنى لا تبديل اللّفظ.

<u>في الآية الخامسة:</u> ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ **يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً. فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[20]

هذه الآية الخامسة هي الآية التي يُخرج منها المفسّرون معنى تحريف اللفظ أكثر منه في أيّ آية أُخرى. وأكثرهم يربط عملية كتابة اليهود للتوراة ونسبها إلى الله بعمليّة تبديل صفات نبيّ الإسلام الحقيقيّة بصفات خاطئة أضافوها إلى توراتهم. ففي الطوسي: "أحبار اليهود كانت غيّرت صفة النبيّ

---

[17] سورة النساء: آية 46

[18] **قطب**، سيد، *في ظلال القرآن*، دار الشروق، الطبعة الشرعية السابعة، القاهرة، مصر، 1978م، المجلد الخامس، ص ص 675 - 676؛ ويبدو ما جاء في جامع الطبري شديد الدلالة على أن أمر التحريف متعلق بالمعاني لا بالألفاظ يقول الطبري: "أما تأويل قوله:"يُحَرِّفون الكلِمَ عن مواضعه"، فإنه يقول: يبدِّلون معناها ويغيّرونها عن تأويله." انظر **الطبري**، *جامع البيان*، ج 4، ص 436. وراجع أيضًا **القرطبي**، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، *الجامع لأحكام القرآن*، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1965م، الجزء الخامس، ص ص 242- 244، وأيضًا لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، *التفسير الوسيط للقرآن الكريم*، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1973م، طبعة 1994م، الحزب الخامس، ص ص 822 - 823.

[19] **قطب**، سيد، المرجع نفسه.

[20] سورة البقرة: آية 79

(ص) ليوقعوا الشكّ للمستضعفين من اليهود".[21] وفي الطبرسي: "كتابتهم بأيديهم أنّهم عمدوا إلى التوراة وحرّفوا صفة النبيّ".[22] ويشير مغنية إلى أنّ "الافتراء عليه [أي على الله]، وعلى نبيّه من أعظم المعاصي وأشدّها عقاباً وعذاباً".[23] ويروي البروسوي أنّ اليهود، عندما كانوا يسألون أحبارهم عن صفات محمّد، "قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لصفته عليه السّلام، فيُكذّبونه".[24] ففي ذلك، يقول الكتكاني، قال الله: **"{فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ}** من هذه الصّفات المحرّفات المخالفات لصفة محمّد".[25] ورغم اتّهام المفسّرين لليهود بهذه التّهمة، فإنّهم لا يسحبونها على كلِّ نصِّ التوراة ولا على جميع نسخها، بل يتّهمونهم بالافتراء على نبيّ الإسلام كلّما سألهم المسلمون عن صفات نبيّهم في كتابهم. فالتّحريف اللّفظي هنا يحمل معنى التّحريف الشّفهيّ أكثر من معنى التّحريف المكتوب بمفهومه الحرفيّ.

<u>في الآية السادسة:</u> ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً **يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ** لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.﴾[26] يطيل المفسّرون في هذه الآية في تفسيرهم لمعنى "ليّ اللّسان". فيفسّره البعض بمعنى "يحرّفون الكلم ويعدلون به عن القصد"، أي تحريف المعنى، "عناداً عن الحقّ وميلاً عنه إلى غيره".[27]

---

[21] **الطوسي**، أبي جعفر محمد بن الحسن، *التبيان في تفسير القرآن*، مرجع سابق، ج 1، ص ص 321 - 323.

[22] **الطبرسي**، أبو علي الفضل بن الحسن، *مجمع البيان في تفسير القرآن*، مرجع سابق، ج 1، ص ص 325 - 328؛ ويقول ابن كثير في هذا مبيّنا الاختلاف بين ما يقوله اليهود وبين ما عندهم: "يخبر تعالى عن اليهود ... أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد صلى الله عليه وسلم ليشتروا به ثمنا قليلا من حطام الدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي يودّون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع." **ابن كثير**، *تفسير القرآن العظيم*، ج 2، ص 323.

[23] **مغنية**، محمد جواد، *التفسير الكاشف*، دار الجواد، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1981م، ج 1، ص ص 133 - 135.

[24] **البروسوى**، إسماعيل حقى، (قده)، *تفسير روح البيان*، مرجع سابق، ج 1، ص ص 167 - 169.

[25] **الكتكاني**، *البرهان في تفسير القرآن*، مرجع سابق، ج 1، ص ص 118 - 119.

[26] سورة آل عمران: آية 78.

[27] **القرطبي**، *الجامع لأحكام القرآن*، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 121؛ يقول الطبري: "قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وإنّ من أهل الكتاب = وهم اليهود الذين كانوا حَوالي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهده، من بني إسرائيل... "يلوون"، يعني: يحرّفون، "ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب"، يعني: لتظنوا أن الذي يحرّفونه بكلامهم من كتاب الله وتنزيله. يقول الله عز وجل: وما ذلك الذي لوَوْا به ألسنتهم فحرّفوه وأحدثوه من كتاب الله. ويزعمون أن ما لووا به ألسنتهم من التحريف والكذب والباطل فألحقوه في كتاب الله "من عند الله"، يقول: مما أنزله الله على أنبيائه "وما هو من عند الله"، يقول: وما ذلك الذي لووا به ألسنتهم فأحدثوه، مما أنزله الله إلى أحد من أنبيائه، ولكنه مما أحدثوه من قِبَل أنفسهم افتراء على الله. يقول عز وجل:"ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون"، يعني بذلك: أنهم يتعمدون قِيلَ الكذب على الله، والشهادة عليه بالباطل، والإلحاقَ **بكتاب الله** ما ليس منه، طلبًا للرياسة والخسيس من حُطام الدنيا" **الطبري**، *جامع البيان*، ج 6، ص 535-536.

ويضيف البعض بأنّ هذه الآية من القرآن "نزلت في اليهود والنّصارى جميعًا"، الّذين يسحبون من تفسيرهم لكتبهم العقائد الدينيّة الخاطئة.[28] وهنا أيضًا يشير البعض إلى أنّ هذه الظاهرة ليست فقط عند اليهود، بل أيضًا عند غيرهم من رجال الدّين "حين يفسدون"، الّذين "يؤوّلون نصوص كتابهم، ويلوونها ليًّا، ليصلوا منها إلى مقرّرات معينة، يزعمون أنّها مدلول هذه النصوص ... بينما هذه المقرّرات تصادم حقيقة دين الله في أساسها".[29] ويتابع بعض المفسّرين المعاصرين على نفس النحو من التّفسير، مشيرين إلى أنّ اليهود كتبوا كتابًا آخر "وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته يوهمون النّاس أنّه من التوراة"، بعد أن جعلوا دينهم جنسيّة وقاوموا كلّ غريب حاول أن يقترب من دينهم. فيضيف البعض أنّه "هكذا يفعل أشباههم من المسلمين اليوم" أيضًا. ويدلّ ذلك الكلام أنّ المقصود من ليّ اللّسان هنا ليس التّحريف اللّفظي بل خطأ تأويل النّص وإخراج عقائد غير صحيحة منه. حتّى أنّ البعض "قد يحرّفون القرآن بالتأويل لتأييد تقاليدهم وبدعهم أو يعرضون عنه اعتذاراً بأنهم غير مطالَبين بأخذ دينهم منه بل من كلام العلماء".[30]

التّحريف في مفهوم الكتّاب المسلمين قبل القرن الحادي عشر الميلادي

عندما نلتفت إلى النصوص الإسلاميّة والعلميّة الأخرى غير التفسيريّة، وبعضها حواريّة، يستوقفنا أنّ مواقف علماء المسلمين تجاه الكتاب المقدّس لم تنحصر في مسألة التّحريف، بل إنّ بعض هذه المواقف عكست انفتاحًا غير عاديّ تجاه موثوقيّة تلك النصوص. وإليكم ثلاثة أمثلة من القرن التّاسع الميلادي. يستشهد المؤرّخ اليعقوبي، بنصّ الكتاب المقدّس بكثافة، مستخدمًا نصوص الإنجيل كمراجع تاريخيّة موثوقة. ويستخدم القاضي ابن قتيبة نصوص الكتاب المقدّس ليحسم ما بين الأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة في كتابه الشهير *كتاب تأويل مختلف الحديث*، فيعطي تلك النصوص مكانة رفيعة في علم الحديث. ويستشهد الإمام القاسم ابن إبراهيم الرسّي (وهو مؤسّس الزيديّة في اليمن) من أوّل سبعة فصول بالوحي الذي سجّله متّى بكثافة، مستخدمًا الأسلوب القرآني. ولا مجال هنا لسرد النّماذج العديدة لتلك المقاربات البنّاءة، بل إليكم فقط نموذج واحد من *كتاب الردّ على النصارى* للقاسم الرسّي، وهو ذكر لـ "الصّلاة الربّانيّة" التي علّمها المسيح لأتباعه (من متّى 6: 9-13):

---

[28] لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، *التفسير الوسيط للقرآن الكريم*، مرجع سابق، الحزب الثالث، ص ص 603 - 604.

[29] **قطب**، سيد، *في ظلال القرآن*، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ص 418 - 419.

[30] **رضا**، محمد رشيد، *تفسير المنار*، المجلد الثالث، ص ص 344 - 345.

ولَكِن، إذا صَلَّيْتم، فَلِلّه وحده فصَلّوا (6)،

وإذا حَكَمْتُم في أرضه بِحُكْم، فاعدُلوا وقولوا:

ربّنا الذي في السماء، تقدَّس اسمُك وحِكْمَتُك (9)،

وعَظُمَ مُلْكُك وجَبَروتك.

أَظْهِر حُكْمَك في أَرْضك،

كَما أَظْهَرْتَه في سمائك (10).

وارْزُقْنا طعام فاقة يَوْمِنا (11).

واغْفر لَنا سالِفَ جرمِنا،

كما نَغْفر لِمَن ظَلَمَنا.

واعْفُ عَنّا برحمتك وإن أجرَمْنا (12).

ولا تَبْتَلِنا، ربّنا، بالبلاء،

وخَلِّصْنا مِن مَكارة الأسواء.

فإنّ لَكَ المُلْكَ والقُدْرةَ،

ومِنْك الحُكْمَ والمَغْفِرةَ،

أَبَد الآبِدينَ،

ودَهْرَ الدّاهِرين (13).[31]

أمّا في ما يتعلّق بمسألة التّحريف، فنكتشف تطوّرًا واضحًا عند علماء المسلمين إذا قارنّا بين فترة ما قبل القرن الحادي عشر وما بعده. وقد تميّز القرن التاسع، كما أشرنا، بمواقف منفتحة كموقف اليعقوبي وابن قتيبة والقاسم الرسّي. بل إنّنا لا نجد في نصّ جدليّ ككتاب *الردّ على النّصارى* لابن ربّان الطبري (وهو نصرانيّ اعتنق الإسلام، وهو غير محمّد ابن جرير الطّبري)، ادّعاء التّحريف اللّفظي ضدّ المسيحيّة. بل ما نجده هو الإشارة إلى "أوجه من التناقض والكبائر ... في شريعة إيمانهم" – أي في قانون الإيمان المسيحي الذي يذكره الطبري كاملاً – ويذهب إلى تفسير "الكلمات التي تأوّلوها بخلاف معانيها" وإلى ذكر "التحريف والفساد الموجود فيه" – أي في التأويل المسيحي لكتابهم. وفي كتاب

[31] حقّق هذا النص وقدّم له:
di Matteo, Ignazio, in "Confutazione contro I cristiani dello zaydita Al-Qâsim b. Ibrâhîm". *Rivista degli Studi Orientali* (Rome) 9 (1922): 301-364.

آخَر للكاتب نفسه بعنوان *كتاب الدّين والدولة*، يجادل الطّبري مع من يقول بأنّ في القرآن أباطيل، فيقول: "إن لم يَسُغْ (أي لم يجُزْ) ذلك في التوراة والإنجيل وفيمن حَضَرَهما، فذلك غير سائغ في القرآن وحَمَلَتِه أيضًا".[32]

أمّا في القرن العاشر، فنظرنا في كتابَيْن مهمَّيْن، وهما *كتاب الإعلام بمناقب الإسلام* لأبي الحسن العامري و*كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل* لأبي بكر ابن الطيّب الباقلاّني، فلم نجد فيهما شيئًا عن تحريف اللّفظ. بل يتّهم العامري رجال دين اليهود والنصارى بتحريف معاني الرموز في كتبهم خوفًا من فقدان مناصبهم إذا اعترفوا بنبوّة محمّد.[33] وأمّا الباقلاّني، فكلُّ ما يذكره في التحريف هو ما يختصّ بترجمة اليهود الفاسدة لتوراتهم من العبريّة إلى العربيّة.[34]

التّحريف في مفهوم الكتّاب المسلمين بعد القرن الحادي عشر

يظهر التحوّل الشاسع في موقف المسلمين من مسألة التّحريف في القرن الحادي عشر، وبالتّحديد ابتداءً من كتابات ابن حزم الأندلسي وبالأخصّ في *كتاب الفَصل في المِلَل والأهواء والنِحَل*. ويتناول ابن حزم في هذا الكتاب الواسع نصَّ الكتاب المقدّس في كلّ أجزائه وبالتفصيل، مشيرًا إلى "التناقضات" و"الاختلافات" والأمور التي -في مفهومه- "تتنافى مع منطق العقل". ويجدر الذّكر بأنّ *كتاب الفصل في المِلَل* لا ينحصر في نقد الكتاب المقدّس وديانتَيْ اليهود والنصارى فقط، بل يذهب إلى هدم جميع المواقف الدينيّة والملل الإسلاميّة وغير الإسلاميّة التي لا تلتزم بموقِف ملّته "الظّاهريّة". ففي موقف ابن حزم الأندلسي نجد هذا التحوّل الجذري من ادّعاء "تحريف المعنى" ضدّ اليهود والنصارى إلى الادّعاء عليهم بـ"تحريف لفظيّ" لكتبهم.

ولقد اعتنق أكثر الكتّاب المسلمين من بعده الموقف ذاته من الكتاب المقدّس، خاطفين التبادل الإسلامي المسيحي من عالم التّحاور في التفسير إلى عالم المجادلة في موثوقيّة النصوص الكتابيّة. هذا ما نجده، مثلا، في *شفاء الغليل في التبديل* لأبي المعالي الجُوَيْني في أواخر القرن الحادي عشر، وفي *الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة* لشهاب الدين القرافي في القرن الثالث عشر، وفي *هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى* لابن قيّم الجوزيّة في القرن الرابع عشر.

---

[32] **الطبري**، علي ،*كتاب الدين والدولة* (حقّقه وترجمه ألفونس مينجانا)، مانشستر، 1923، ص 35.

[33] **العامري**، أبو الحسن محمّد ،*كتاب الإعلام بمناقب الإسلام* (حقّقه عبد الحميد غراب)، القاهرة، 1967، ص 202.

[34] **الباقلاّني**، أبو بكر محمّد ابن الطيّب ،*كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل* (حقّقه الأب ريتشارد مكّارثي)، بيروت، 1957، ص 181.

أين يقف المسلم والمسيحي اليوم من هذا الموضوع؟

فما هو موقف المسلمين اليوم من تهمة التحريف ضدّ اليهود والمسيحيّين؟

أكثر المسلمين اليوم يعتنقون فكرة "تحريف اللفظ"، وهي التهمة التي توارثها المسلمون عبر الأجيال منذ ابن حزم. ومن الواضح أن هذا الموقف لا يترك للحوار البنّاء مجالاً، لأنّه يلغي الأساس الكتابي للتبادل الإسلامي المسيحي في المجالَيْن العقائدي واللاهوتي. وهدف هذا المقال كان الإشارة إلى مواقف أُخرى بنّاءة اعتنقها أهم علماء المسلمين خاصة قبل القرن الحادي عشر. وبذلك نرغب أن نقدّم إلى القارئ المسلم نماذج في الحوار في هذا الموضوع غير النموذج المتشدّد المنتشر اليوم.

ولنختم قولنا بموقف مَن سُمِّيَ بـ"شيخ الإسلام، بحر العلوم وصدر القروم، الناسك، العابد، الزاهد" تقي الدين أحمد بن تيميّة، الذي تمكّن من تخطّي موقف "تحريف اللفظ" المتشدّد، رغم أنّه عاش في القرن الرابع عشر. ففي كتابه *الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح*، وكما يشير عنوانه، يتّهم النصارى بتبديل دين المسيح من خلال تأويلهم الخاطئ لكلامه. ولا شك أنّه كان يعرف كتابات ابن حزم والجويني والقرافي، وكان شيخ ابن قيّم الجوزيّة في دمشق. ولكنّه رغم علمه للموقفَيْن الإسلاميّيْن المحتملَيْن، تحريف اللفظ وتحريف المعنى، قد امتنع من أن يلتزم صراحة موقف تحريف اللفظ. فكان ابن تيمية رجل حوار وعلم أن الموقف المتشدّد يقتل الحوار. فبيّن موقفه في الكلام التالي: "فَعُلِم أن التوراة التي كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس وبعد مجيء بختنصر وبعد مبعث المسيح وبعد مبعث محمد فيها حكم الله، والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله وإن قيل إنه غُيِّرَ بعض ألفاظها بعد مبعثه فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك فإن هذا غير معلوم لنا وهو أيضا متعذر بل يمكن تغيير كثير من النسخ وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة في الغالب إنما تختلف في اليسير"[35]

ولكنّه ركّز نقده على تهمة تحريف المعنى، كان موقفه هنا حتميًّا:

[35] **ابن تيميّة**، *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*، تحقيق د.علي حسن ناصر ود.عبد العزيز إبراهيم العسكر ود. حمدان محمد، دار العاصمة، ط 1، الرياض، 1414هـ، ج 2، ص 419.

"وإذا عُرِفَ أنّ جميع الطوائف من المسلمين واليهود والنصارى يشهدون أنه قد وقع في هذه الكتب تحريف وتبديل في معانيها وتفاسيرها وشرائعها، فهذا القدر كافٍ."[36]

ونختم بالقول بأنّ هناك فرقا أساسيّا في الأصل بين مفهوم المسيحيّين لكتبهم ومفهوم المسلمين. إذ يركّز المسيحيّون على أنّ الكتاب المقدّس يشير إلى المسيح، وهو نفسه كلمة الله الأزليّة. وأكثرهم لا يتمسّك بمفهوم للوحي الكتابي بمعنى "التنزيل" كما يعتقد المسلمون في كتابهم. بل الكتاب المقدّس شهادة موثوقة، أَوْحى بها الله لرُسُله ليقود الإنسان إلى معرفته. وينبغي على أهل الإيمان أن يسعَوْا إلى التّحاور والتّبادل البنّاء في كلّ وقت من خلال سَعْيِهِم إلى اكتشاف المعاني العميقة والمُغنِية في هذه الكلمة المكتوبة.

ملاحظة:

الرجاء من الباحثين والمؤرّخين وعلماء الدّين إن كان لديهم مخطوطات للتّوراة والزّبور والإنجيل تُثبت خلاف ما لدينا الآن، فليخرجوها إلى النور.

[36] المرجع نفسه، ج 2، ص 413.